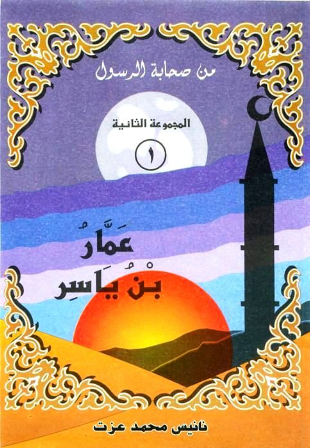

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
١
عَمَّار
بْنُ يَاسِر
نانيس محمد عزت

عمار بن ياسر

أَقبلَ فَصلُ الرَّبيعِ فأورقَتِ الأشْجار ، وتفتَّحتِ الزُّهور ، ولَبِست الطَّبيعةُ رِداءَها الوَرديَّ الجَميل .

وأطلَّ أيمنُ من نافِذَةِ غُرفَتِه ، فوجَدَ الأزهار تَتمايَلُ مع نَسماتِ الرَّبيعِ الدَّافِئةِ فى جَميعِ الحَدائِق ، ونَظر إلى حَديقَةِ بَيتِهم ، فوجَدَها ذابِلَةً مُصفرَّةً ، لا حياةَ فيها .

ذهبَ أيمنُ إلى أبيه وسألَهُ وهو حَزين : لِماذا يا أبى تَبدو حَديقَتُنا فَقيرَةً جَرداء ، بين حَدائِقِ الجيران ؟ إنَّ مَنظرَها يَدعو إلى الخَجَل .

أجابَ أبوه : نَعَم يا أيمَن ، فمَنظرُ الحَديقَةِ لا يُسرّ ، ويرجعُ ذلك إلى أنَّ العَمَّ خَليل البُستانىّ ، لم يَعدْ يأتى إليها مُنذُ وَقتٍ طَويل .

قالَ أيْمَن : ولماذا لم يَعُد العَمُّ خَليل يَترَدَّدُ عليها ؟ أهو مَريض ؟ هل تَسمَحُ لى يا أبى أن أزورَهُ فى بَيتِه ؟

فرِحَ أبوهُ لشعورِ ابنِه الطَّيِّب ، وقالَ لـه : بـالطَّبعِ يا أَيْمَن ، فزيارةُ المَريضِ واجبَة . خُذْ مَعكَ الحارسَ العَمَّ عَبدُه ، فهو يَعـرِفُ بيتَ العَـمِّ خَليل . إنَّ العَـمَّ خَليـل رجُلٌ طَيِّـب ، يَخـدُمُ أُسرَتَنا مُنـذُ خمسينَ سَـنة ، ولا يَمنعُه عَنّا إلاّ الشَّديدُ القوِيّ .

فى الصَّباحِ بعدَ تَناوُلِ طَعـامِ الفَطور ، ذهـبَ أَيْمـنُ والعمُّ عَبدُه لزيارةِ العَمِّ خَليل البُستانيِّ فى بَيتِـه ، الَّـذى فرِحَ بزيارَتِهما . وسألَهُ أيْمَن :

ـ لماذا لم تَعدْ تَتَرَدَّدُ على حَديقَتِنا يا عَمُّ خَليل ؟ أأنتَ مَريض ؟

أجابَـهُ العَـمُّ خَليـل : لا واللّـهِ يـا أَيْمَـن ، فانـا بخَـيـرٍ والحَمدُ لِلّه . ولَكنّى تَقدَّمـتُ فـى السِّـنّ ، وفَضَّلـتُ أن أبقَى فى البَيْت.

اسْتَعجبَ أيمـنُ وقـال : أيُعقَـل هـذا يـا عَـمُّ خَليـل ؟ تَتمتَّعُ بالصِّحَة ، وتَمتَنِعُ عن العَمَل ؟

ردَّ عَليهِ العَمُّ خَليل فى يأس : إنّها السِّنُّ يـا وَلـدى . فقد أشرفْتُ على الخامِسَةِ والسِّتينَ مُنذُ أيّام .

قالَ أيْمَن فى حَماس : وما دَخلُ السِّنِّ فى العَمَـل ؟ فما دُمـتَ بكـامِلِ صِحَّتِكَ وتَقدِرُ على العَطاء ، فـلا حُجَّـةَ لـك فـى تَـركِ العَمَـل . أتعلَمُ أنَّ أحـدَ صَحابَـةِ الرَّسول صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، وهو عَمّارُ بـنُ ياسـر ، خاضَ حَرْبًا ضارِيَةً وهو فى الثّالِثَةِ والتّسعينَ من عُمره ؟

ابتسمَ العمُّ خَليل وقال : فى الثّالِثَةِ والتّسعين ! على ذلكَ فإنّى مازلتُ فى رَيْعانِ الشَّباب .

قالَ العمُّ عَبدُه : الشَّبابُ شَبابُ القَلبِ يا عَمُّ خَليل. ولكِن كيفَ اسْتَطاعَ عَمـارُ بـنُ ياسِـر ، أن يَشْتَـرِكَ فـى مَعرَكَةٍ وهو فى مِثلِ هَذِهِ السِّنِّ المُتقدِّمَة ؟

قالَ أيْمَن : دَرسْنا قِصَّةَ عَمّار بن ياسِرٍ فى المَدرَسَة ، وسوف أحكيها لكُما . كان أبو عَمّار ـ ياسِرُ بنُ عـامِرٍ ـ مـنَ اليَمَـنِ . وقـد جـاءَ إلى مكّـةَ يَبحَـثُ عـن أخٍ لـه

مَفْقود . وعندَما يَئِسَ منَ العُثورِ على أخيه ، قرَّرَ أن يَستقِرَّ في مَكّة ، في جوارِ البَيتِ العَتيق . وكعادَةِ العَربِ آنَذاك ، كانَ عليهِ أن يُحالِفَ أحدَ السّادَةِ في مكّةَ لِيَرْعاه ، فحالفَ «أبا حُذَيفَةَ بنَ المُغيرَةِ المَخزوميّ».

وأُعجبَ أبو حُذَيفَةَ بنُبلِ أخْلاقِ ياسِر ، فزوَّجه أَمَةً ـ أى جاريَةً ـ له ، اسمُها « سُمَيَّةُ بنتُ خياط » ، أنجبَت له عَمّارا .

شبَّ عمّارُ بنُ ياسرٍ في مكّة ، في ظِلِّ أبَوَيْه ، ومِثلَ كُلِّ أهلِ مَكّةَ كانَ يَنتظِرُ الحَدثَ العَظيم « البِشارَةَ بالنُّبوّة » الّتي قيلَ إنّها ستَتحقّقُ فيها قَريبا .

وصَدقَتْ البِشارَة ، وبُعِثَ مُحمَّدٌ صلّى اللّهِ عَليهِ وسَلّم نبيًّا للنّاس كافّة ، يَدعو إلى عِبادَةِ اللّهِ وَحدَه ، ونَبذِ عِبادَةِ الأصْنام .

واختلفَ النّاسُ في قَبولِ دَعوَتِه ، فمنهم من صدَّقَ وآمَن ، ومنهم من أعْمَتهُ العَصبيَّةُ القَبليَّة ، وخوفُه علَى

تِجارَتِهِ ونُفوذِهِ من إيمانِهِ بالدِّينِ الجَديدِ . وكان أغْلَبُ هَؤلاءِ من سادَةِ القَوم . أمّا العَبيدُ والإماءُ فقد وَجَدوا فى الدِّينِ الجَديدِ ، العِزَّةَ والكَرامَةَ ، والحُرِّيَّةَ الَّتى فَقدوها فى حَياةِ الرِّقِّ والعُبودِيَّة . ومن بَينِ هَؤلاءِ كانَ عَمّارُ بنُ ياسِرِ الَّذى أسْلَم ، وما إن دَعا والِدَيهِ إلَى الإسْلامِ حتّى اسْتَجابا لدَعوَةِ الحَقّ .

ولكنَّ أمرَهُم افتَضَح ، وعلِمتْ قُريشٌ بإسلامهم ، فأوْكلتْ أمرَ تَعذيبِهِم ، ورَدِّهِم عنِ الدّينِ الجَديدِ إلَى بَنى مَخزوم . فتحَمَّلَ آلُ ياسِرٍ منَ العَذابِ فَوقَ ما يُطيقُهُ البَشَر . فألبَسوهم دُروعَ الحَديدِ ، وصَهروهم بأشِعَّةِ الشَّمسِ الحامِيَة ، ومَنَعوا عنهم الماءَ ، وتَعاقَبوا عليهم بالضَّربِ الشَّديد . ومرَّ بِهِم رَسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ وهو حَزين ، حيثُ لا يَمْلِكُ أن يُردَّ عنهم العَذاب، فَقالَ لهم : (صَبرًا آلَ ياسِر ، فإنَّ مَوعِدَكم الجَنَّة) .

قالَ العمُّ عَبدُه : يـا لَهـا مـن بُشْـرَى ! فقد بَشَّـرهُم الرَّسولُ بالجَنَّة .

قالَ أيْمَن : نعم ، إنَّ آلَ ياسِرٍ من المُبَشَّـرينَ بالجنَّـة . ولم يَتحمَّل الشَّيخان الكَبيرانِ ذَلكَ التَّعذيب ، فهـا هـى ذى سُميَّةُ تموتُ بِيَدِ أبى جهـل ، إذْ طَعَنهـا فى أسْفلِ بَطنِها فأرْداها قتيلَـة ، فكـانت بذلـكَ أوّلَ شَـهيدةٍ فـى الإسْلام ، وها هو ذا ياسِرٌ يَمـوتُ مِـن وَطأَةِ التَّعذيبِ وهو يُتَمتِمُ بالشَّهادتَيْن ، ولم يبقَ من آلِ ياسِرٍ إلاّ عَمّار، فتَفنَّنتْ قُريشٌ فى إيذائِه فأحْرقَتْهُ بالنّار ، فمرَّ الرَّسـولُ صلّى اللّه عَليهِ وسَلَّم يـدَهُ على رَأسِـهِ وقـال : (يا نـارُ كونى بَردًا وسَلامًا على عَمّار ، كما كُنتِ بَردًا وسَلامًا على إبراهيم) .

وذاتَ يوم جاوزَتْ قُريشٌ كلَّ حَدٍّ فى تَعذيـبِ عَمّـار، فأحرقَتْهُ بالنّار ، وصَلبَتْـهُ على رِمـالِ الصَّحراءِ المُلتَهبَـة ، وأغرقَتْ وَجهَهُ فى الماءِ حتّى اختَنقَ وتَسلَّخت جُروحُه .

قالَ العمُّ خَليل : يا لَلبَشاعَة ، وياللقَسوة !

قالَ أيْمَن : وفقدَ عمَّارٌ عِندَئذٍ وَعيَـه ، وطلَبتْ منه قُريشٌ أن يَذكُرَ آلِهتَها بخَير . وبُدون وَعي ردَّدَ عَمّارٌ ما طَلبَتْهُ منه قُرَيش . وعِندما أفاقَ انْهارَتِ الدُّنيا مِن حَولِه، فقد سبَّ ديـنَ مُحمَّد ، وذكرَ الأصنامَ بخَير . أيكونُ قد صَبَأ بعد إيمانِه ؟ لا بدَّ أنَّها النِّهايَة ! وذهب عمّارٌ حَزينًا يائسا إلى رَسولِ اللّهِ صلّى اللّـهُ عَليهِ وسلّم ، وقصَّ عَليهِ ما كانَ من أمرِه . فسألَه : (وكيفَ تَجدُ قلبَكَ يا عَمّار ؟) قالَ عَمّار : أجِدُهُ مُطمَئِنًا يا رَسولَ اللّه . قالَ : (لا عليْكَ : وإن عادوا إلى مِثلِها ، فعُد إلى مِثلِ ما قُلْتَ) .

قالَ العمُّ خَليل مُستَبشِرا : يا لَسماحَةِ الإسْلامِ ويُسرِه !. صدَقَ مَن قال : إنَّ الدِّينَ يُسر ، وليسَ عُسْرا.

وصمَدَ عمّارٌ حتّى حلَّ الإعياءُ بجَلّاديه ، وارتَدّوا

صاغِرِينَ أمامَ إصْرارِه .

قالَ العمُّ عَبْدُه : الحمدُ لِلّه . فقد اقْشَعرَّتْ أبْدانُنا من هَولِ ما قَصصتَ عَلينا من ألْوان العَذاب .

قالَ له أيْمَن مُداعِبا : اقشَعرَّ بدَنُك لمُجرَّدِ سَماعِكَ قِصَّة ، فما بالُك بمن عاشَ أحْداثَها وتعرَّضَ لأهوالِها ؟

قالَ العمُّ عَبدُه : لا أَستَطيعُ أن أقولَ إلاّ ما قالَهُ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم : (إنَّ مَوعِدَكُم الجنّة)، فهو في الحَقيقَةِ أهلٌ لَها .

قالَ أيْمَن : وتنزّلتْ آياتُ القُرآن تُؤيِّدُ مَوقِفَ عَمّار: ﴿ مَن كفرَ باللّهِ مِن بعدِ إيمانِه إلاّ مَن أُكرِهَ وقَلبُه مُطمَئنٌّ بالإيمان ولكِنْ من شرَحَ بالكُفرِ صَدرًا ، فعلَيهِم غَضبٌ من اللهِ ولَهم عَذابٌ أليم ﴾ .

وأمرَ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، أصْحابَهُ بالهِجرَةِ إلَى المَدينَة ، وفرَّ عمّارٌ بدينِه . وفي قِباء دَعا الرَّسولُ أصْحابَهُ لبناءِ مَسجدٍ يجتَمِعُ فيهِ المُسلِمون ،

فكانَ المَسجدُ الَّذى أقامَه عمّارٌ وزُملاؤه ، هو أوَّلَ مَسجدٍ فى الإسْلام .

وفى أثناء بناء مَسجدِ الرَّسول ، عَمِلَ عَمّارٌ بهمَّةٍ ونَشاطٍ وحَملَ الأحْجارَ الثَّقيلَة ، فتنبَّأَ لَهُ الرَّسولُ بقَوله: (وَيحَ ابنَ سُميَّة ، تَقتُله الفِئةُ الباغيَة) .

وأحبَّ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّم عَمّارا ، فقالَ عَنه : (من عادَى عَمّارًا عاداهُ الله ، ومن أبغَضَ عَمّارًا أبْغَضَهُ الله) .

واشْترَك عمّارٌ فى غَزوَةِ بَدر ، فكانَ الوحيدَ الَّذى خاضَها وأبَواهُ مُؤمِنان شَهيدان . كما اشْترَكَ فى سائِرِ الغَزَوات ، فكانَ على الدَّوامِ فى الصُّفوفِ الأماميَّة ، حَريصًا على إحْدَى الحُسنَيَيْن : النَّصر أو الشَّهادَة.

وبعدَ وفاةِ الرَّسول صلّى اللهُ عَليه وسَلّم ، كانَ له مَوقِفٌ رائعٌ معَ المُرتَدِّين ، فعِندما رجحتْ كِفَّةُ المُنافقِينَ فى يَومِ اليَمامَة ، وبَدأوا يَحصُدونَ أصْحابَ الرَّسولِ

صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسَلَّم ، وقفَ عمَّارٌ فوقَ صَخرةٍ ، وقـد قُطِعتْ أُذُنه وبَقِيتْ عالِقَةً برَأسِـه ، وقـفَ يَحفِزُ الجُنودَ ويَدعوهُم إلى التَّقدُّم : يا مَعشَرَ المُسلِمين ، أمِنَ الجنَّةِ تَفِرّون ؟ إليَّ يا مَعشَر المُسلِمين . وانطلقَ وأُذُنه تَتذبـذَبُ على وَجهِـه ، إلى أن تمَّ قتـلُ مُسيلمَةَ الكَـذَّاب ، وعـادَ النّاسُ عن رِدَّتِهِم .

قالَ العمُّ خَليل : لقد بذَلَ المُسلِمونَ الأوائلُ جُهـودًا كَثيرَةً لنُصرةِ الدّين ورفعَتِه .

وقالَ أيْمَن : صَدقتَ واللهِ يـا عَـمّ خَليـل ، وصَـدقَ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسَـلَّمَ حينَ قـال : (أصْحابي كالنُّجوم ، بأيِّهِمُ اقْتدَيْتُم اهْتدَيْتُم) .

وعندَما تولَّى الخِلافَةَ عُمرُ بنُ الخَطّاب ، ولَّـى عمّـارًا الكوفَةَ ، وجَعَل معه عَبدَ اللَّهِ بنَ مَسعودٍ على بَيتِ مـالِ الكوفَة ، ومعلِّمًا لمبادئِ الدّين .

قالَ العَمُّ عَبدُه : أخيرًا .. آنَ له أنْ يَستَريح ، فحَيـاةُ

الأُمراء فيها بعضُ الرّاحَةِ والرّفاهِيَة .

ضحِكَ أيْمَنُ وقال : لا يَنطَبِقُ هَذا على أصْحابِ الرّسول يا عَمُّ عَبدُه ، فإنّ الإمارَةَ بالنّسبةِ لَهم مَسئولِيّة، وهيَ هَمٌّ باللّيلِ والنّهار .

واستعجبَ لذلك العَمُّ عَبدُه ، فقالَ لـه أيْمَن : هـل تَخيَّلتَ أنّه اتّخذَ لنَفسِهِ قَصْرا ، وخدَمًا وحَشَما ؟ لا واللّهِ ، فقد كانَ زاهِدًا مُتواضِعًا ورَعا . يَشترى أشْياءَهُ بنَفْسِه ، ويَربطُها بحَبل ، ويَحملُها إلى دارِهِ على ظَهرِه ، وقد عايَرهُ أحدُ أهلِ الكوفَةِ بقَولِهِ لَه : يا أَجدَعَ الأُذُن . فكانَ يَردُّ عَليهِ بقَولِه :

ـ خيرُ أُذُنَيَّ سَبَبت .. لَقد أُصيبَت فى سَبيلِ اللّه .

وعِندما أُقصِيَ عن الإمارَة ، كانتْ له كَلِمَةٌ عَظيمَة : واللّهِ لقـد ساءَتْنى الإمارَةُ أكثَرَ مِمّا ساءَنى الإقْصاءُ عَنها.

وحانتِ اللّحظَةُ المَوعودة ، فَنشبَ النّزاعُ بينَ علىٍّ

ابنِ أَبى طالِب ، ومُعاوِيَةَ بنِ أبى سُفيانَ على الخِلافَة ، وأَحقِّيَّةِ كلٍّ مِنهُما بها .

وانحاز عمّارٌ من فَورِهِ إلى عَلِىِّ بنِ أبى طالِب ، لا مُتحيِّزًا ولا مُتعصِّبا ، بل مُتَّبِعًا لِلحَقِّ وحافِظًا للعَهد ، فعلِىٌّ بالنِّسبَةِ لمُحمَّدٍ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ، بمَنزِلَةِ هارونَ من موسَى .

وخرجَ عَمّارٌ وهُو فى الثّالِثَةِ والتّسعينَ من عُمرِه ، لنُصرَةِ الحَقِّ . خرجَ ما دامَ يَعتَقِدُ أنّ القِتالَ مَسئوليَّته وواجِبه ، وقاتَل كما يقاتِل أبناءُ الثّلاثين ، فكانَ لا يتكلَّمُ إلاّ عائذًا باللّهِ من الفِتَنْ ، أو قائِلا : اليَومَ أَلقَى الأحِبَّة ، مُحمَّدًا وصَحبَه .

وحاولَ أتْباعُ مُعاوِيَةَ أن يَتفادَوْا عَمّارًا فلا يَقتُلوه ، فتَعلَّمَ النّاسُ أنّهم همُ الفِئَةُ الباغِيَة ، الّتى تنَبَّأ بها الرَّسُول صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم .

وتحقَّقتِ النُّبوءَة ، وقتَلَ جُنودُ مُعاوِيَةُ عَمّارا ، وتَبلَبَلَ

جَيشُ مُعاويَة . فقد عَرَفوا أنّهم هُم البُغاة . ولكنَّ مُعاويَةَ بدَهائِه قال : إنَّ من قتلَ عمّارًا هُم عَليُّ بنُ أبى طالِبٍ وأعْوانُه ، الّذين خَرجوا بِهِ لِلقِتال وهو فى مثلِ سِنّه .

أمّا عمّارُ فقد حَملَهُ الإمامُ عَليٌّ فوقَ صَدرِه ، إلى حَيثُ صلّى عَليهِ هو والمُسلِمون ، ودُفِنَ فى ثِيابِهِ المُلطَّخَةِ بدِمائه .

قالَ العمُّ خَليل : ياللشّجاعةِ ويا لَلإقْدام ! يُقاتِلُ وهو فى الثّالِثَةِ والتّسْعين . إنّهُ أهلٌ للجَنّةِ حقًّا وصِدْقًا .

قالَ أيْمَن : أتعلمُ يا عَمُّ خَليل ، أنّ النَّبيَّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلّم ، قالَ ذاتَ يومٍ وقد تَهلّلتْ أساريرُه : اشْتاقَتِ الجَنّةُ لعَمّار .

قالَ العَمُّ عبدُه : يا سُبحانَ اللّه ! الجَنّةُ هى الّتى اشْتاقَتْ له ؟ يا فَرحَتَهُ .. يا هَناءَه !

قالَ أيْمَن : والآنَ يا عَمُّ خَليل ، هلْ ستَترُكُ كسَلَكَ

وتَعودُ إلى العَمَل ؟ إنَّ حَديقَتَنا اشْتَاقت إلَيْك .

ابْتسَم العَمُّ خَليلٌ وقال : وأنا أيْضا اشْتَقْتُ لِلعَملِ بها . وأُصَدِقُكَ القَول ، إنِّى مَللتُ المُكثَ فى البَيتِ بلا عَمَل . هيًا بنا يا أيْمَن .. هيَـا يـا عَـمُّ عَبـدُه إلى حَديقَـةِ بَيتِكم ، حيثُ العَملُ والنَّشاطُ والهِمَّة .

قالَ أيْمَن : وأنا علـى اسْتِعدادٍ لأنْ أُساعِدَك ، فإنَّ غَرسَ البذرَةِ فى الأرض ، ورُؤيَتَها وهى تَنمو يَومًا بعد يَومٍ حتى تُصبِحَ شَجَرَةً وارِفَة ، هى مُتْعَةٌ أىُّ مُتعَة ! ألَيسَ كَذلِكَ يا عَمُّ خَليل ؟